أسوار

لا أحد يُمكنه تصور مدى فرحتي وكم اشتياقي في هذه اللحظة، إلا هو !، "جيمس "...ليس صديقًا قديمًا، ولم تكن لي سابق معرفةً به قبل الآن، التقيته منذ دقائق، كان جالسًا بجواري في المقاعد المخصصة لنا انتظارًا لموعد صعودنا إلى داخل الطائرة، أو كما يحلو لي أن أُسمّيها طائر الرخ الذي سيحملني على جناحيه الكبيرين مُحلّقًا في سماءٍ لا متناهية،عائدًا بي إلى وطني

في البدء تحادثنا بالإنجليزية بلكنةٍ أمريكية، إلا أنه فاجأني برغبته في التحدث بالعربية الفصحى قائلاً أنه واظب منذ عام ونصف على دراستها، في إحدى المدارس المخصصة لإبناءً الجاليات العربية، كما أنه شغوفٌ بالدراسات الإسلامية، وقرأ الكثير عن الحضارات القديمة في الشرق الأوسط، خاصةً الحضارة الفرعونية والحضارة البابلية، قاطعته وأنا أحاول أن أُغلف سروري بشئٍ من الجد:

لذا كان قرارك بزيارة مصر والعراق

أجابني:

نعم، لكي أرى عن قرب أحفاد هؤلاء العظماء

صوت المذيع الداخلي أنهى حديثنا فجأة، عندما أعلن عن ضرورة التوجه لبوابة البهو، استعدادًا لإنهاء إجراءات الصعود إلى متن الطائرة صدفةٌ بحتة أم ترتيب قدريٌ مسبق؟ ساءلت نفسي لدهشتي !..أنَّ مقعده أيضاً داخل الطائرة كان بجوار مقعدي، بادرني متسائلاً وفي عينيه شغف: ألا زلتم تستخدمون

الجمل والحمار وعربة الحصان في تنقلاتكم؟
ضحكت كثيرًا قبل أن أجيبه في ثقةٍ:
الجمل والعربة التي يجرها الحصان مخصصتان للسياحة فقط، أما الحمار فيستخدمه أهل الريف في نقل ما يحتاجونه لموالاة مزارعهم.
سكتُ لبرهة متفحصًا وقع مفاجأتي، كان اندهاشه ضعيفًا، وإن بدا في اتساع عينيه قليلاً، اردفت : يا عزيزي نحن نستخدم في تنقلاتنا سياراتٍ حديثة كالمرسيدس والجاجوار
قاطعني مستغربًا:
المرسيدس ألمانية، والجاجوار إنجليزية !!...أليس لديكم سيارات محلية الصنع؟
كدت أن أخبره أن هناك العديد من مصانع تجميع السيارات، إلا إنني أحجمت خجلاً، كما أنَّ إضاءة الضوء الأحمر الخاص بربط حزام المقعد، والإرتجاجات شبه العنيفة التي تلته، أنقذاني، فانشغلنا بربط الأحزمة.
ونظراتنا يشوبها مسحة خوفٍ وقلقٍ يتزايد كلما زادت الإرتجاجات من قوتها، انكفأتُ على نفسيً أردد آية الكرسي مراتٍ ومرات، بينما كان جيمس يتصفح مجلة حورس الخاصة مُتصنِّعًا هدوءً لا وجود له
لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن يتلاشى الضوء الأحمر، إلا إنه أخيرًا تلاشى.
ظل معظمنا على وضعه السابق، كان الرعب الذي انتابنا منذ لحظات كافيًا لإتخاذ الحيطة والحذر، التفت إليّ متسائلاً:
ما مدى جودة شبكة الإتصالات في مدنكم؟
انفرجت اساريري، وربّتُ على فخذه الأيسر مطمئنًا:لا

تقلق...لدينا أربع شبكات اتصال، كلها على أعلى مستوى من الجودة، وأحدث أنواع الحاسبات الإلكترونية عالمية الصنع.
انفرجت شفتاه، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة عن الكلام، وفي نظراته سؤالاً سبق أن نبست به شفتاه، سألته:
تزور المنطقة وفي هذا الوقت بالذات !!...ألا تخشى الإرهاب؟
أجابني:
الإرهاب موجودٌ في كل مكان
قاطعته: ولكنكم في العالم الغربي تُقصرونه على الإسلام والمسلمين
التفت ناحيتي مُركزًا بؤبؤيه في حدقتيّ:
الإسلام براءٌ يا عزيزي، إنما العلّة تكمن في بعض المسلمين المتطرّفين، وتطرّفهم منشأه عوامل عدة، منها ما يتسبب حكامكم فيه، ومنها ما تسبب فيه سياستنا.
اختلج قلبي فرحًا بين جوانحي، بهذه الرؤية السديدة، همهمت:
فعلاً يا صديقي...الإسلام براء.
استأذنني لينام قليلاً فما زالت الرحلة طويلة، ونام، أمّا أنا فلم يغمض لي جفن، وكيف أغفو وأنا عائدٌ إلى وطني؟!، كم اشتاق لإشتمام رائحة ترابه !
كما هى العادة أنهى إجراءات وصوله قبلي، لا لشئ سوى أنه أمريكي الجنسية، بينما أنا مواطن مصري لا يزال معتزًا بجواز سفره المصري، وهو ما أبرزته لضابط الجوازات رغم حيازتي لجواز سفر أمريكي، إلا إنني فوجئت به في انتظاري وبجواره حقيبته، ساعدني في تجميع حقائبي الخمسة، ومضينا جنبًا إلى جنبٍ وجهتنا صالة الجمارك، كان صامتًا شارد الذهن، لم يتفوه بكلمةٍ واحدة

أثناء سيرنا، فجأة توقف ومد يده مودعًا:
إلى لقاءٍ آخر يا عزيزي، لقد عدلت عن قراري بالدخول
سألته مُندهشًا: لمَ؟
وقبل أن يأتيني رده أردفت:
أستذهب إلى العراق مباشرةً؟
أجابني في ثبات بينما كان يسير مُبتعدًا
لا....ولكن إلى الصين، فعندهم أيضًا سورٌ عظيم، لكنهم تجاوزه.

* * *